بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 61 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة الإنسان

التاريخ:05\12\2023 م كتبه: عبدالله ضيف الستري

ما زال الحديث في الآية الواحدة والعشرين، وفي المقطع الأول منها ﴿عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

هناك تعليق على شيء تقدم عنه في المبحث السابق، قلنا إن هذه الكلمة الأولى ﴿عالِيَهُمْ﴾ قرأت بقراءتين، هناك قراءة (عالِيْهم) فتكون اسم. بعض الأخوة قال حينئذ تكون مبتدأ وما بعدها فاعل سد مسد الخبر.

هذه الدعوى -كما تعلمون- ليست محل اتفاق عند النحاة. المشهور من النحاة اشترطوا في إعراب ما يأتي بعد الصفات المشتقة فاعل سد مسد الخبر أن يكون تلك الصفة معتمدة على استفهام أو نفي، كقولك: أقائم الزيدان، حينئذ نقول قائم مبتدأ والزيدان فاعل سد مسد الخبر. أما من دون اعتماد قائم، فالمشهور بينهم أنه حينئذ يعرب مبتدأ وخبر إذا كان هناك مسوغ للابتداء بالنكرة.

ما نحن فيه (عالِيْهم) بناء على هذه القراءة مما يكون من صغرى هذا النزاع، الكوفي ذهب إلى الجواز واستند بذلك إلى قول الشاعر

خبير بنو لهب فلا تكن ملغيا

خبير مبتدأ، وبنو لهب فاعل سدة مسد الخبر، مع أن خبير لم يعتمد على نفي أو استفهام.

على كل تقدير هذه المسألة محل خلاف، لكن من ناحية المعنى لا تؤثر.

نرجع إلى بقية البحث في هذه الآية المباركة، فيما بعد هذه الكلمة من قوله: ﴿ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ المسطور في مصاحف اليوم هو رفع ﴿خُضْرٌ﴾ ورفع ﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾.

لكن -في الواقع- يوجد قراءات متعددة، مع قطع نظري عن أسماء القراء، هذه هي القراءة المشهورة، لكن عندنا قراءة بخفض خضر وإستبرق، وعندنا قراءة برفع الأول وخفض الثاني، وعندنا قراءة بخفض الأول ورفع الثاني.

وهذا في الواقع مرجعه إلى أن ﴿خُضْرٌ﴾ هل هي صفة للثياب، فالثياب مرفوعة، فنقول: ثياب خضر. أم صفة للسندس، فسندس -الذي هو نوع من الديباج ونوع من الحرير الرقيق فهذا الديباج- لونه أخضر لا أن الثياب لونها خضراء.

كذلك الحال في ﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾ هل هي معطوفة على سندس أو هي معطوفة على ثياب.

على كل تقدير اختلفت القراءة باختلاف نوعية العطف ونوعية الصفة.

المعنى في هذه الآية المباركة واضح، مع قطع النظر عن مرجع الضمير في ﴿عالِيَهُمْ﴾ هل هم الأبرار أم هم الولدان؟ المعنى أن هؤلاء يعلوهم لباس من حرير يتنوع إلى نوعين حرير وديباج رقيق وهو السندس وديباج غليظ وخشن وهو الإستبرق.

أما أن هذا المعنى يرجع إلى مَن مِن الفريقين فقد وقع فيه الخلاف، هناك من المفسرين من أرجعه إلى الولدان، ومن المفسرين من أرجعه إلى الأبرار، وهناك طائفة ثالثة خالفت فهو يرجع إلى الأبرار لكن ليس ثياباً للأبرار، بل أولئك الأبرار المتكئون فوق رؤوسهم يوجد غطاء من سندس وإستبرق.

على القول الأول والثاني الآية تصف لباساً يرتدى إما للأبرار وإما للمخلدين، على القول الثالث هذا الثياب فوق رؤوسهم.

لكن هذا القول الثالث دفعه سهل، عادة لا يطلق على الغطاء في الخيمة أو في مجلس الاتكاء وما شابه ذلك، لا يطلق عليه بأنه ثياب، الثياب لا تطلق ما يستر الرأس ويظلله، وإنما تطلق على ما يستر البدن.

إذاً هذا القول الثالث بعيد إلى الغاية، فيدور الأمر بين أن يكون المعنى أننا نتحدث عن ثياب ترتدى، لكن هل هي للأبرار أم هي للولدان؟

لم يصرح الذي القول الثاني بوجه ذلك، مع أن هذا هو الذي يحتاج إلى استدلال، وهذه نكتة في علم البلاغة جداً في غاية الأهمية الكثير منا لا يلتفت إليها، وهو أنه إذا كان الحديث عن مطلب أساسي تكون كل القيود وأجزاء الكلام ترجع إلى ذلك المطلب الأساسي، حتى لا يصرف المتكلم النظر عن ذلك المطلب الأساسي، خصوصاً إذا كان في غاية الأهمية.

المطلب الأساسي إلى الآن في الآيات التي قرأناها في هذه السورة المباركة هو حديث عن نعم وجزاء أعدّه الله سبحانه وتعالى للفرقة الثانية، التي كانت شكورة، وأطلق عليها القرآن الكريم عنوان الأبرار، فكل الآيات كانت في خدمة هذا المطلب الأساس، حتى الولدان المخلدين جاء لخدمة هذا المطلب الأساسي.

فجأة تريد أن تطنب في أن هؤلاء الولدان ماذا يرتدون؟ وماذا يحلون؟ وماذا يشربون؟ فهذا يخرجنا عن المطلب الأساسي، وليس له مزيد فائدة، خصوصاً فيما يرتبط بالشراب، فالولدان ماذا يشربون؟ فما هو المؤثر في ذلك؟ أما زينة الولدان هي في مصلحة الأبرار.

يعبرون في البلاغة بهذا التعبير: إذا أردت المطلب الأساسي عندك أن تنفي مجيء زيد، فعليك أن تقول ما جاء زيد؛ لأن الأساسي هو نفي مجيء زيد. أما إذا بدأت تضع قيوداً فيتغير المطلب الأساسي، فإذا قلت ما جاء زيد راكباً لا تنفي مجيء زيد، بل تنفي مجيئه راكباً، فزيد جاء. إذا أتيت بقيود أخرى يختلف المطلب.

فلكيلا نصرف الذهن عن المطلب الأساسي لابد أن يكون التركيز في كل ذلك على هذا المطلب، أما التركيز على الحواشي والهوامش والأمور الثانوية يخرجنا عن ذلك المطلب الأساسي.

إذاً ظاهر هذه الآية من منطلق هذه القاعدة المباركة أن الحديث ما زال عن النعم التي أعدّها الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الأبرار. بعد أن ختم تلك النعم السابقة بقوله ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعيماً وَمُلْكاً كَبيراً﴾ أراد أن يفصّل شيئاً من هذا النعيم والملك الكبير، فقال: ﴿عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

ويوجد في سورة الحج يقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَلِباسُهُمْ فيها حَرِيرٌ﴾[1] فمن ناحية المضمون الأساسي مع هذا المقطع من الآية المباركة متحد. لكن هناك على نحو الإجمال أن لباسهم هو حرير، أما هنا ثيابهم ولباسهم النوعين من الحرير الناعم والرقيق والخشن والغليظ، فما هو السر في ذلك؟

لابد في تلك الآية أن نبحثها في سياقها ضمن بحثها التفصيلي، وليس الآن محل كلامنا.

لكن من الواضح جداً أن المتكلم تارة يتعلق له غرض في أصل نوع الثياب، وتارة يتعلق له غرض في تفصيلها وتصنيفها.

هنا من الممكن أن يكون أن التنعم الكامل يريد أن يبيّن أن هذا الحرير الذي يرتدونه وهذه الثياب التي يرتدونها كان من نوع الثياب الذي يرتديها الملوك، الحرير لوحده نعرف أنه من أغلى أنواع الأقمشة ومن أغلى أنواع الثياب، فكيف إذا صار مفصّلاً بطريقة من ناحية الشكل ومن ناحية اللون بأن يكون للطائفة العظمى في المجتمع، وهي طائفة الملوك، فيكون أكثر تشويقاً وتأثيراً تنعيماً لهؤلاء الأبرار، فتعلق الغرض في هذه الآية أن يفصل بهذا التفصيل.

[1] الحج: 23